مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

أَدَبِيَّةُ القَوْلِ وَبَلَاْغَةُ الإِقْنَاعِ فِي خِطَاْبِ الإِمَاْمِ المَهْدِيِّ عليه السلام

وضحى أحمد يوسف يونس [1]

١ جامعة تشرين / كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة / قسم اللُّغة العربيَّة، سوريا؛

Wadha7443@gmail.com

دكتوراه في اللغة العربية / أستاذ مساعد

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٣/٧/١	٢٠٢٣/٨/١٠	٢٠٢٣/١٢/٣١

المجلــد (١٦) العــدد (٢٨)
جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ-كانون الأول٢٠٢٣م

DOI: 10.55568/t.v16i28.93-120

مُلَخَّصُ البحْث:

مضى خطاب الإمام المهديّ عليه السلام بانسيابيَّة عالية التدفّق نحو بلاغة الخطاب و دقّة مضمونه حتَّى أخذ منحىً جماليًّا تبتعد خطواته عن الغموض والتعقيد و تقترب كثيرًا بما تنتقيه آفاق التلقّي إذ لا التباس يُذكر في تفاصيل الرؤية ولا مناص من تعدّد التأويلات في مضمونه المنسجم في المعنى والمحتوى؛ إنَّها أقوال عملت على نحت صورة إنسانيَّة فائقة يترجمها الوعي بما فيها من عمق التعبير، ورصانة الخطاب البلاغيّ فضلاً عن وجود تجربة روحيَّة تعانق الواقع الإنسانيّ وتدعوه إلى المزيد من الاختبار الروحيّ حتَّى يخوضه بثقة واطمئنان و يعيشه بمعرفة وهذه التجربة قوامها الوعي وشدّة الإدراك و ليس لها أن تكون محكومة بآراء مسبقة وأحكام جاهزة بل إنَّ فضاء القول فيها هو مرآة للفضاء الواقعيّ الإنسانيّ الذي تدعوه إلى ترجمة حقيقيَّة لوجود الإنسان و أن تلتحق تجربته بمرافئ الذاكرة الإنسانيَّة لذا تجلَّت القصديَّة في خطابه مع ما انمازت صوره بجماليَّة موجّهة نحو القارئ لكي يفكّ رموزها و شيفراتها واستخراج الدلالات والمعاني التي توجد في النصِّ لأنَّ العمل الفنِّيَّ يمكن أن يُفهم بوصفه بنية ذات طبقات من الرموز والمعاني المستقلّة تمام الاستقلال لذا وُسمَت معاني الخطاب بأنَّها أعمق تأثيراً وأصبحت الشاهد الوحيد على امتداد الواقع الإنسانيّ إذ قامت تلك الرؤى بفتح بوابات التأويل كافَّة مع مفارقة قصديَّة في بلاغة الخطاب فضلًا عن بنيته المتماسكة التي تدعو القارئ إلى استنباط ما هو مخبوء فيه من بؤر إشعاع مضيئة بجماليَّة شفافة .

كلمات مفتاحيَّة: أدبيَّة القول، بلاغة الإقناع، تجلّيات المعرفة، اللُّغة والفكر

Ethics of Speech and Eloquence of Persuasion in Speech of Imam Al-Mahdi (may Allah Expedite his Resurrection)

Wadha Ahmed Yousef Younis [1]

1 Tishreen University / Faculty of Arts and Human Sciences / Department of Arabic, Syria; Wadha7443@gmail.com

PhD. in Arabic Language / Assistant Professor

Received:	Accepted:	Published:
1/7/2023	10/8/2023	31/12/2023

DOI: 10.55568/t.v16i28.93-120

Volume (**16**) Jumada Alakhirah 1445 AH
Issue (**28**) December 2023

Abstract:

The speech of Imam Mahdi , may Allah bless him and grant him peace, has recourse to the eloquence of the speech and the accuracy of its content to have an aesthetic sense and to avert any act of ambiguity and complexity . It is a kind of harmony between meaning and content. The statements are manifested with awareness, depth of expression , sobriety of rhetorical discourse and spiritual experience that embraces human reality and invites him to more spiritual experience with confidence . Such an experience emanates from awareness and intensity of perception and comes as preconceived opinions and ready-made judgments. Indeed, the space of speech is like a mirror of the realistic human space calling for a true translation of man existence and for his experience . Therefore, intentionality was evident in his speech, with his images characterized by an aesthetic sense directed towards the reader to decode their symbols and codes and perceive connotations. The meanings of the discourse were characterized with the deepest influence and became the only witness to the extent of human reality, as these visions opened all the gates of interpretation with intentional creativity of the eloquence of the discourse and its cohesive structure that invites the reader to discover the hidden : sparkling spots with transparent aesthetic.

Keywords: Literary speech, Rhetoric of persuasion, Manifestations of knowledge, Language and thought.

المقدِّمة

الإمام المهديّ عليه السلام هو المخلّص العائد بإذن الله بعد غياب حيث تنتظره الإنسانيَّة ويشتاق إليه العرب والمسلمون ليغيّر هُوِيَّة الزمان من الشرّ إلى الخير، ويقيم المجتمع المثالي المبنيّ على المحبَّة المتبادلة بين البشر التي تمثّل خلاصة المعرفة الإنسانيَّة والكمال المعنويّ.

إنَّ نهج الإمام عليه السلام هو نهج المحبَّة النابعة من عشق منتظريه له حيث يشكّل حبُّه في قلوبهم وعقولهم دافعًا قويًّا للتسامي والعيش المشترك الذي يحقّق التوازن بين الحقوق والواجبات، والانسجام بين الفرد والجماعة فيتمتع الإنسان باستثمار طاقاته الكاملة و يخرجها من مكامنها إخراجاً منظّماً و يوجّهها توجيهاً حيويًّا لأنَّ المحبَّة المتبادلة بين الإمام و ربِّه و بينه و بين مريديه تُعَدُّ نموذجًا يُحتذى فهي صورة من صور الحبِّ الإلهيّ؛ إذ يقترن الإيمان بالمحبّة يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة ١٦٥) ويقول النبيّ صلى الله عليه وآله : (بعث الله رجلًا من عترتي أهل بيتي يحبّه ساكن الأرض ،و ساكن السماء)[1]

و للإمام مناجيات إلهيَّة يسأل فيها ربَّه، و أقوال كثيرة تخاطب محبيّه، و محاججات عقليَّة يدحض بها الخطأ بالصواب ؛ و يتمتع تراثه الفكريّ ببلاغة جامعة لبلاغات كثيرة كبلاغة الإيجاز، و بلاغة الاحتجاج، و بلاغة النثر، و بلاغة العقل ، وغير ذلك من أنواع بلاغة القول الأدبيّ الذي يجدر أن تتزيّن به (رياض الأدب و حدائق العقول من مسائل دقيقة، وأدلَّة صائبة، ومواعظ حسنة، وُحجّة بليغة، ونصيحة كافية ،وإمتاع مؤنس)[2] ما يسوّغ إنشاء هذا البحث ليقدّم دراسة نقديَّة بلاغيَّة لنماذج مختارة من بلاغة الإمام و تعتمد الدراسة منهج التحليل اللغويّ والبلاغيّ لتكشف عن جماليَّاتها المتنوّعة المتواشجة مع مضامينها المتسامية

وحدة اللُّغة والفكر في نهج الإمام عليه السلام

تُعَدُّ كلمات الإمام كنزاً من كنوز التراث الإسلاميّ لما تحتوي عليه من ثروة فكريَّة إذ تحفل كلماته بالحكمة والأخلاق وتنطوي على خلاصة تجربة سامية إذ يُعلي الإمام المهديّ عليه السلام من قيمة الأفكار العقليَّة ليحيي به الله الحقَّ والعدل والإمام يعتبر الكلام وقفة بين

١ الشامي، صهيب محمود. معجم أحاديث المهدي عند أهل الحديث و الأثر، ط١، ٢٠٢٠م، الجزء الأول ٨٤; مرعشي النجفي، شرح إحقاق الحق، تحقيق الميانجي، إبراهيم تصحيح (قم: منشورات مكتبة آية الله العظمى، د.ت) الجزء الثالث عشر ١٥٢.

٢ التوحيدي، أبو حيان. الإمتاع والمؤانسة. تحقيق أمين، أحمد أحمد و الزين (لجنة التأليف و الترجمة، ١٩٤٢م)، ١٤٠.

يـدي الله لذلـك يسـتأذن ربَّـه إذا أراد الـكلام فيقـول : (إذا أذن الله لنـا في القـول ظهـر الحـقُّ واضمحـلَّ الباطـل وانحـسر)[٣]

و في قوله ما يؤكِّد مسؤوليَّة الكَلم و قدسيَّته وهذا معروف في الدين الإسلاميّ و باقي الأديان يقـول تعـالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (إبراهيم ٢٤ – ٢٥)

يراعـي الإمـام في كلماتـه النسيج الضـامّ بـين الألفـاظ و المعـاني فيـما سـمّاه عبـد القاهـر الجرجـانيّ (النظـم) مـا جعـل مـن خطابـه المتنـوّع نـماذج ناصعـة مـن نـماذج الكتابـة الهادفـة حيـث يلتقـي اللفظ والمعنى في علاقـة جماليَّة تعكـس تضافرهمـا وتلاحمهـما بحيـث لا يمكـن عـزل بلاغـة أحدهمـا عـن بلاغـة الآخـر فأدبيَّة النصِّ هـي أدبيَّة الشـكل والمضمـون و قـد ارتقـت بلاغتـه ﷺ إلى مستوى من الفصاحـة و البيـان وهـو مستوى بلاغـة الإيجـاز حسـب مـا تفيـده تعريفـات البلاغـة المقترنـة دومًـا بالإيجـاز و أهـمّ سـماته الإفحـام ؛ فالبلاغـة في المجـال الدينـيّ وسـيلة إقنـاع وإفهـام وهـي في كلـمات الإمـام لم تكتـفِ بهـذه الماهيَّـة بـل انطـوت عـلى هـدف جمـاليّ إذ قُدمَـت في صـورة جذّابـة، ومعـرضٍ حسـن و لم تنحـصر جماليَّاتهـا في اللُّغـة بـل انبثقـت عـن فلسـفة خاصَّـة في التفكـير، وأسـلوبيَّة مائـزة في التعبـير، و تقنيـة إقناعيَّـة في المحاججـة فهـي البلاغـة المرتبطـة بالخطابـة ارتباطًـا وثيقًـا لتعبيرهـا عـن جـدل ذهنـيّ خصـب يُعـبّر عـن تحـوّلات ثقافيَّـة إذ تجمـع بلاغـة الإمـام بـين هدفـين وظيفـيّ وجمـاليّ إذ يضطلـع نـصّ الإمـام المهـدي ﷺ بمهمَّـة تتوخَّـى التأثـير في المتلقّـي تأييـداً لقضيَّـة، أو اتِّخـاذاً لموقـف ،أو تكريسـاً لقيمـة إيجابيَّـة فالقضيـة البلاغيَّـة غيريَّـة تتأسَّـس غالبًـا عـلى التوجيـه والتعليـم حيـث يتجسَّـد هـذان الأخـيران بأسـاليب إنشـائيَّة كالأمـر والنهـي و يكـون موضوعهـا مزدوجـاً هـو الفـرد و الجماعـة في آن معًـا إذ يـبرز في خطاب الإمـام الطابعان الإصلاحـيّ الاجتماعيّ والفقهـيّ الدينـيّ يقـول : ﷺ (أنـا خاتـم الأوصيـاء بي يدفـع البـلاء عـن أهـلي وشـيعتي)[٤] إذ يشـير إلى أنَّـه الإمـام الثـاني عـشر آخـر الأئمَّـة وهـو وصيٌّ؛ والأهـل والشـيعة هـم أنصـار الإمـام في غيبتـه و حضـوره يعلّقـون آمالهـم عـلى شـجرة ظهـوره لأنَّـه سـينشر العدالـة والمسـاواة فتتحقَّـق الكرامـة

٣ الحسيني، باقر. بحار الأنوار لدر أخبار الأئمة الأطهار (بيروت: مؤسسة الوفاء، د.ت) الجزء الثالث والخمسون ١٩٦.
٤ الراوندي، قطب الدين. دعوات الراوندي. تحقيق مدرسة الامام المهدي، ١٤٠٧، ٥٦٣/ ١٩٦.

الإنسانيَّة ، وهذه هي الوصاية التي شملتها كلمة الإمام (أنا خاتم الأوصياء) حيث رسالته عليه السلام هي أن يقف الإنسان في ناموس الكون ممتثّلًا للقوانين و الشرائع الإلهيَّة وهذا هو البلاء الذي يريد الإمام أن يدفعه عن أهله و باقي البشر ،وأبرز ما في القول السابق بلاغة الإيجاز المتحقِّقة بألفاظ قليلة هي (أنا خاتم الأوصياء) و معانٍ كثيرة يختصرها النصُّ التالي :

(عن أبي خالد الكابليّ قال : دخلت على مولاي عليّ بن الحسين عليه السلام و في يده صحيفة كان ينظر إليها ويبكي بكاء شديدًا فقلت : ما هذه الصحيفة ؟ قال : هذه نسخة اللوح الذي أهداه الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيه اسم الله تعالى و رسوله وأمير المؤمنين عليّ و عمّي الحسن بن عليّ واسمي واسم بني مُحَمَّد الباقر و ابنه جعفر الصادق ،و ابنه موسى الكاظم ،و ابنه عليّ الرضا، و ابنه مُحَمَّد التقي، و ابنه عليّ النقي، وابنه الحسن العسكريّ، و ابنه الحجَّة القائم بأمر الله المنتقم من أعداء الله الذي يغيب غيبة طويلة ثُم يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً و ظلماً)[٥] ؛ أمّا مفردة البلاء فهي اسم جمع لأنواع من الابتلاء .

إنَّ العلاقة بين اللفظ والمعنى في هذه المقولة هي علاقة نماءٍ واتّساع إذ لم يتكلّف الإمام المعنى فهو حقيقة واقعة ،ولم يقصد الصنعة بل كانت عفو الخاطر، و جاءت لفظة الوصاية في مكانها الملائم لتعبّر عن حجم مسؤوليَّة

الإمام و نوعها ؛ فالوصيّة هي إقامة مجتمع الإسلام المثاليّ وهي مهمَّة جسيمة تحتاج إلى المؤازرة بين الطبيعة والإنسان وإلى المؤازرة بين البشر فمؤازرة الطبيعة هي غزارة المطر، وخصوبة الأرض، ومؤازرة البشر هي تعاونهم لزيادة الإنتاج، وتحقيق الوفرة حيث تُخرِج الأرض كنوزَها من تلقاء نفسها ترحيباً، وإيذانًا بقدومه عليه السلام اهتماماً منه بالفقراء قصْدَ إغنائهم (يتجاور الناس في ديارهم ،و يصطحبون في أسفارهم، و يشتركون في أموالهم)[٦] الأمر الذي أكدّه النبيّ صلى الله عليه وآله في قوله : (بعث الله رجلًا من عترتي أهل بيتي يحبّه ساكن الأرض و ساكن السماء)[٧] و لهذا الحبّ علامات هي التضحية ،و الإيثار، والتعلّق، والشمول ،والكثرة في عدد الكائنات فتتحوّل مسؤوليَّة المحبَّة إلى مبدأ عامّ يسري في الكون و في سياق هذه المحبَّة

٥ الحسيني، مرتضى فياض. الإمام المهدي،سيرته، علامات ظهوره، د.ت. الجزء الأول ٦٥١.
٦ يوسف بن يحيى بن علي الشافعي، عقد الدرر في أخبار المنتظر. تحقيق البوريني،المهيب بن صالح ط٢ (الأردن، ١٩٨٩م)، ٣٧٢.
٧ الشامي، معجم أحاديث المهدي عند أهل الحديث و الأثر، الجزء الأول ٨٤.

يتوجّـه الإمـام إلى ربّـه قائـلاً : (إلهـي إنَّ وجهـاً إليـك في رغبتـه توجّـه خليـقٌ بـأن تجيبـه، وإنّ جبينـاً لـك بابتهالـه سـجد حقيـقٌ أن يبلـغ المُبتَهِـل مـا قصـد ،و إنَّ خـدّاً لديـك بمسـألته تعفّـرَ جديـرٌ أن يفـوزَ السـائلُ بمـراده ويظفـر)[٨]

تبـدأ المناجـاة بذكـر المحبـوب المُنَـادى (إلهـي) و يـأتي لفـظ الرغبـة ليؤكِّـد الحـبَّ المتبادل بـين الإمام وربِّـه فـإذا نظرنـا إلى الحـروف المكّونـة للألفـاظ وجدنـا أنّ الحـروف الأكثـر اسـتعمالًا هـي الجيـم والخـاء والـدالّ و القـاف في (وجـه و تجيبـه و جبـين وسـجد و خليـق و خـدّ)؛ ولا شـكَّ أنَّ لاختيـار الألفـاظ المنضويـة عـلى هـذه الحـروف دون سـواها دلالـة الرغبـة في وجـود أو خلـق جديديـن وهـذا هـو الأسـلوب الصـوفيّ في تعبيراتـه المتمحـورة حـول فكـرة واحـدة هـي دائـرة الوجـود والإنسـان في داخلهـا متّحـدٌ بربّـه عـن طريـق محبَّتـه و الإيـمان بـه ،والسـجود لـه ، و لكـنَّ أي سـجود فالصـلاة عبـادة ظاهريَّـة لهـا باطنهـا و هـي رياضـة روحيَّـة و لا تكمـن قيمتهـا في ممارسـتها فقـط لأنَّهـا مفروضـة بـل لأنَّ لهـا غايـات ضمنيَّـة يكشـف عنهـا أسـلوب الإمـام في عـرض أفـكاره، و الكشـف عنهـا و توضيـح غاياتهـا بواسـطة إيقـاع المفـردات التـي تتركّـب لتكويـن المعنـى وتشـكيل الصـور .

و بالعـودة إلى حـرفي الجيـم والخـاء و هـي حـروف ترابيـة تتجـاور مـع حـرف الحـاء و هـو حـرف نـاري نجـد أنَّ الـترابي دلالـة عـلى عـالم الإنسـان المنتمـي إلى آدم المخلـوق مـن تـراب و النـاريّ دلالـة عـلى عـالم آخـر في علـم الحـروف الممعـن في أسـراره و خفائـه ،و لطائـف رمـوزه ،و خفـيّ إشـاراته ؛ كـما أنَّ هـذه الحـروف متواليـة في ترتيبهـا ،و لهـذا التـوالي المتراتـب دلالـة انتـماء الحـروف بعضهـا إلى بعـض حيـث تتخـذ شـكلًا مغلقًـا شـبه دائـري يلتقـي مـع أشـكال شـبه دائريَّـة لحـروف أخـرى هـي العـين و الفـاء و الصـاد و الظـاء و هـذا هـو ديـدن الصوفيّـين في التعامـل مـع الحـروف يقـول النفـريّ: (الحـرف خزانتـي فمـن دخلهـا فقـد حمـل أمانتـي، و الحـرف نـاري، و الحـرف يعجـز عـن أن يُعـبّرَ عـن نفسـه فكيـف يُعـبّرُ عنـي، و الحـروف كلّهـا في مـرضٍ إلّا الألـف أمـا تـرى كلّ حـرف مائـل أمـا تـرى الألـف قائـماً غـيرَ مائـل إنَّـما المـرض الميـل للسـقام فـلا تمِـل)[٩] أمّـا الطبـاق المعنـويّ و تضـادّ الحالـين بـين (تعفّـر) و(يظفـر) فهـو التقـاء النقيـض بالنقيـض كالتقـاء الحيـاة والمـوت في

٨ الكفعمي، تقي الدين بن إبراهيم العاملي. البلد الأمين و الدرع الحصين. تحقيق الاعلمي، علاء الدين. ط١ (لبنان: مؤسسة الاعلمي، ١٩٩٧م)، الجزء التاسع ٤٦٣.

٩ النفري، المواقف والمخاطبات، تقديم محمود عبد القاهر و تحقيق آربري، آرثر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م)، ١٢٢.

نقطة واحدة ؛ فالتعفّر أمام باب الله هو الخضوع له و حرف الراء المتكرّر في الكلمتين يترقرق مثل نبع عذب وهو في مواجهة مع حرف الدالّ في (سجد) و(قصد) يخلق ثنائيَّة من القسوة واللين و ينقل العاشق العابد من حالة اليأس إلى حالة الأمل ،ومن الظلم إلى العدل ،ومن الظلام إلى النور، ومن نهايات واقعيَّة ليست على ما يرام إلى نهايات مأمولة تتماهى في بدايات روحيَّة ، و للنصّ السابق تتمَّة في مصادر أخرى منها الصحيفة الرضويَّة هي : (اللهم إنَّ الشقيّ من قنط ، و أمامه التوبة ، و وراءه الرحمة، و إن كنت ضعيف العمل ،فإنِّي في رحمتك قوي الأمل)[١٠] حيث يُعرِّفُ الإمام ﷺ الشقاء بانَّه قنوط و يقرن السعادة التي يحقّقها الأمل بشرطين هما التوبة التي تجبّ ما خلفها و تحوّله إلى رحمة؛ فالتوبة هي رجوع عن الخطأ و لكنَّه رجوع مُنزَّه عن الرغبة في الثواب أو الرهبة من العقاب فالتوبة مفهوم مقترن بالرحمة والمغفرة ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان ٧٠) و في عالم الإمام يتولَّد الخير عن الخير، فالأمل سعادة والتوبة رحمة، و العمل أمل ؛ وهكذا يحيا العاشق دورة حياته الإيمانيَّة .

يعمل الطباق على إنجاز المعنى فهو في خدمة الجدل الذي يتمثّل مرَّة بواسطة الألفاظ المفردة و يتمثَّل مرَّة

أخرى بواسطة الجمل والتراكيب كما يتمثَّل أحياناً بواسطة جملة قصيرة مؤلَّفة من كلمتين كما في قول الإمام مناجياً ربَّه : (أنت الساتر عورتي ،فلك الحمد، وأنت المقيل عثرتي، فلك الحمد ، وأنت المُنفّسُ صرعتي، فلك الحمد، صلّ على مُحَمَّد و آله، واستر عورتي)[١١] فالطباق هنا يقع في جملة قصيرة مكونة من كلمتين هما :

(الساتر عورتي) بين الستر و العورة وكذلك الطباق الثاني في قوله: (المقيل عثرتي) يقع الطباق بين (الإقالة) و(العثرة) و في قوله (أنت المُنفّس صرعتي) يقع الطباق بين (التنفيس) و(الصرعة) وفي أمثلة الطباق السابقة لا يوجد فاصل بين طرفي الطباق بل يتواليان مباشرة في دلالة على محاولة الخلاص من ضيق نفسي ، و قلق داخلي ،و صراع الخير والشر في النفس

١٠ جمعة، حسين. تجليات التصوف وجمالياته في الأدبين العربي و الفارسي (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، د.ت) ٩٣.
١١ القمي، عباس. مفاتيح الجنان، ط٣ (دار ذوي القربى، د.ت) الجزء الخامس عشر ٢٣٢; مُحَمَّد باقر الأصفهاني، الصحيفة الرضوية الجامعة. تحقيق مؤسسة الإمام المهدي، ط١ (مؤسسة الإمام المهدي، د.ت) ٣٠٥.

البشريَّة ؛ فالطباق محاولة لمحاكاة جدل الوجود، وعرضه بطريقة فنيَّة تؤذن بزواله؛ أو على الأقلّ تؤذن بزوال آثاره من نفس الإنسان المؤمن ؛فالإمام المهدي ﷺ يقارب جدل الوجود من خلال الطباق بوصف هذا الجدل، و محاكاته بواسطة اللغة .

إنَّ المناجاة رؤية روحيَّة بمنزلة معراج صوفيّ ولا تنتمي المناجاة فنيًّا إلى نوع أدبيّ سابق بل هي وليدة ذاتها؛ وهي هنا وليدة طريقة المهدي ﷺ في عبادة الله و محبَّته يبرز فيها طقسه الفرديّ ذو الغايات الجماعيَّة حيث تكمّل مناجياته بعضها بعضاً فتبدو المناجاة تتمَّة لأختها معنويًّا من ذلك على سبيل المثال لا الحصر المناجاة التالية : (اللّهم إنّا نرغب إليك في دولة كريمة تُعزّ بها الإسلام وأهله، و تُذلّ بها النفاق وأهله ،و تجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك، والقادة إلى سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة)[١٢] فالضمير المفرد تحوّل إلى ضمير الجماعة ،و هذا يعني أنَّ مصلحة الفرد اتَّسعت لتشمل مصلحة الجماعة في أقصى درجات اتِّساعها أي

(دولة الإسلام) لتصبح دولة الكرامة الإنسانيَّة و مصدر اعتزاز المسلم ،و ذلّ المنافق فعبر الطباق (تعزّ) و(تذّل) أشار الإمام إلى الهوّة بين الواقع والمثال إذ تتولّد من أسلوب الإمام طاقات تعبيريَّة تُحوّل المضمون الفكريّ الدينيّ إلى شكل أدبيّ حرّ في التعبير عن معرفة الله، والذات، والوجود ؛ ففي القول السابق يتوجّه الإمام بكليَّته إلى ربّه سائلاً إيَّاه الإجابة على ابتهالاته و تلبية مقاصده ، والفوز بمحبَّته ،وقبوله صلاته تمهيداً للظفر بالاتِّحاد به .

الإنسان هو خليفة الله في الأرض ،و وجه الإمام هو المرآة التي تعكس توجّه المؤمنين إلى ربِّهم بشوقهم العارم يقطعون المفازات و هذا هو فكر الإمام الذي تأثّر به الصوفيّون و في مقدِّمتهم النفّري ففي مخاطبة له بعنوان (مخاطبة وبشارة وإيذان الوقت) من كتابه (المواقف و المخاطبات) يقول مخاطبًا ربَّه : (أنت وجهي الطالع من كلِّ وجه)[١٣] وهذه هي خلافة الإنسان ربَّه فهو صاحب المقام و الحاكم على الأرض ، و الأرض أمانة موضوعة بين يديه، و الإنسان العبد جسر الله إلى الإنسانيَّة .

لقد جعل النفّري نصوصه تنطق على لسان المهديّ ﷺ مشيرًا إلى تبشير الإمام بزوال

١٢ ابن طاووس، اقبال الاعمال، تحقيق الاعلمي، حسين، د.ط. (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٦م)، ٣٢٢.
١٣ النفري، المواقف والمخاطبات، ٢٧٧.

الليل الطويل الذي يجثم على الطبيعة، والإنسان من ليل الظلم، وعتمة الباطل: (وقال لي حان حيني، وأزفّ ميقات ظهوري، وسوف أبدو، ويجتمع إليّ الضعفاء، ويقوون بقوَّتي، وأطعمهم أنا وأسقيهم، وترى شكرَهم لي فقم يا نائم،

و نم يا قائم فقد جعلت المصيبة أسر العزاء، و أنزلت هُداي، ونوري، و عمودي، وآياتي، و قال انصب لي الأسرّة، وافرش لي الأرض بالعمارة، و ارفع الستور المُسبَلة لموافاتي فإنِّي أخرج و أصحابي معي، و أرفع صوتي، و تأتي الدعاة فيستدعوني فأحفظهم، و تنزل البركة، وتنبت شجرة الغنى في الأرض، و يكون حكمي وحدي)[١٤]

يقدّم الإمام أفكاره المذهبيَّة تقديمًا منطقيًّا فلسفيًّا من جهة ترتيب الأفكار، وأساليب التعبير عنها طلباً لنصرة هذه الأفكار دينيًّا وأخلاقيًّا؛ و لعلَّ أحد أهمِّ أشكال النصر المعرفيّ المُبتغى هو الخلاص الصوفيّ، و قد جمع في أقواله النظر العقليّ مع الذوق الصوفيّ للتعبير عن نشدانه الإنسان الكامل المرتبط روحيّاً بزمن النبوَّة المُحَمَّديَّة هذا الإنسان المنشود في مستواه الكونيّ فالنوع الإنسانيّ متفاضل بأفراده و الغاية القصوى من الوجود هي الإنسان الباحث عن كماله المُمثّل بذاته نواة الإصلاح لبناء مجتمع مثالي وهو على الدوام حلم المؤمنين والصوفيّين بخلاص البشريَّة ممّا يُكدّر سعادتها وأمنها و كفايتها ؛فالإنسان الكامل حلم تنطوي عليه مقولات الإمام هو المتمتّع بفاعليَّة اجتماعيَّة و كونيَّة، و هو البطل المتصدّي للقيام بمشروع حضاريّ كبير محوره كمال الإنسان الفرد ومصلحة النوع مُمثّلاً بالإنسانيَّة يقول ﷺ:(إنّا قدوةٌ وأئمّة و خلفاء الله في أرضه ، و أمناؤه على خلقه ، وحججه في بلاده، نعرف الحلال و الحرام ، ونعرف تأويل الكتاب و فصل الخطاب)[١٥]

و هذا القول موجَّه للفريق المعترض على إمامته ﷺ بينما إمامته ﷺ أمرٌ يجب الاعتراف به بوصفه من سلالة النبيّ؛ فالخطاب هو الكلام، وهو الرسالة و فصل الخطاب ما ينفصل به الأمر من الخطاب؛ و هو إرث نبوي شأنه شأن تأويل الكتاب فالتأويل خاص بالكتب الإلهية و أوّلَ أي صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله و هذا ما يحاجج به الإمام المهديّ الكفرةَ الرافضين ففصل الخطاب

١٤ النفري، ٢٧٧.
١٥ الحسيني، بحار الأنوار لدر أخبار الأئمة الأطهار، ٨٩/ ٩٦.

خاصّ بالنبيّ و أهل بيته (وآتيناه الحكمة و فصل الخطاب) ص ٢٠ و لذلك يأتي خطاب الإمام سليمًا من الإيجاز المخلّ ،بريئاً من الإسهاب الممّل إذ لا حاجة له و المقصودون بالحديث هم الأئمة الاثنا عشر خلفاء الله بقربهم من نبيّه، وأمانتهم على الخلق ،ومعرفتهم بما حلّله الله و حرّمه.

و يتأتّى فصل الخطاب حسب الجاحظ من تقرير حجَّة الله في عقول المُكلّفين و تخفيف المؤونة على المستمعين و تزيين المعاني في عقول المريدين بالألفاظ الحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل بالموعظة الحسنة)[١٦]؛ ففصل الخطاب إذن هو الكلام الذي يقوم على الحق، والعدل، والصواب، والقبول العقليّ للمعنى (تقرير الحجَّة) وعلى الإيجاز و الوضوح تخفيفًا عن السامع مع مراعاة جماليَّات القول من تهذيب ،وتشذيب، و تقديم المعنى بأحسن صورة من اللفظ .

تجلّيَّات المعرفة وبلاغة الإقناع:

الإفهام أساس رئيس من أسس الإقناع والإفهام في النقد العربي القديم هو حدّ البلاغة والبيان وشرطها اللازم ألح عليه النقاد وقرنوه بالبلاغة والعقل إذ تستلزم بلاغة الإقناع نمطًا كلاميًّا أساسه المنطق ووسيلته الاستدلال ونتيجته التأثير فالإقناع فعاليَّة لغويَّة منطقيَّة تمنح للخطاب طريقته المؤثِّرة التي تصل إلى حدِّ حثِّ القارئ على إعادة النظر في معتقداته ولذلك يبنى الخطاب الإقناعيّ على ترتيب الأفكار ويتوسّل القياس والاستنباط والاستقراء والاستشهاد في المكان المناسب لكلّ منها

الحجاج مطلب أساسيّ في كلِّ عمليَّة اتِّصال هدفه الإفهام والإقناع وهذا ما جعل خطاب الإمام عج يكتنز على الكثير من المواضع الحجاجية بدءًا من الكلمة المفردة والانتهاء بالجملة والتركيب مرورًا بالموضوع المحمول

في تضاعيف المفردات والجمل المركَّبة منها مع الانتباه لحجم الطاقة الحجاجية الكامنة في أساليب البلاغة والبيان بهدف توضيح المعنى وإقناع المتلقِّي بمعونة قوى النفس الفكريَّة والخياليَّة عند الكاتب والقارئ على حدٍّ سواء

١٦ الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، البيان والتبيين. تحقيق هارون، عبد السلام ط ٢ (مكتبة مصطفى بابي الحلبي، ١٩٦٥م)، الجزء الأول ١١٤.

بلاغـة الاحتجـاج أو بلاغـة العقـل هـي بلاغـة الخطـاب الإقناعـيّ، وترتكـز حسـب الدكتـور مُحَمَّـد العمـريّ (عـلى القيـاس و المثـال و الشـاهد؛ فتدعـو العقـل إلى الانسـجام مـع مبادئـه في السـببيَّة، وعـدم التناقـض، و يشـمل القيـاس جميـع صـور الاسـتقراء، والاسـتنتاج)[١٧]

تتمحـور محاججـات الإمـام حـول أفـكار مشـتركة ذات غايـات عامَّـة تصـبّ في مصلحـة المسـلم والإنسـان عمومًـا تدعوهمـا إلى التفكّـر في وجوده ،و مصدر هذا الوجود، وغاياته، وطرق معايشـته، و يـؤول النتـاج الفكـريّ للإمـام عـلى تنـوَّع موضوعاتـه ،واختـلاف أسـاليبه إلى هـدف رئيـس هـو غـرس الإنسـانيَّة المثلى في نفـوس المسـلمين و لذلـك يُمثّـل خطابـه علامـةً فارقـةً في الثقافـة العربيـة المعـاصرة لما يتضمَّنـه مـن رسـالة التحوّل عـن الباطـل إلى جهة الحقِّ مـا يتطلّب قوّة الحجّـة والبرهان بغايـة الإفهـام والإقنـاع ؛ ففـي أقـوال الإمـام قصديَّـة واضحـة حيث يُشـكّلُ مجمـوع نصوصه وحدة موضوعيَّـة بتراتبيـة الأفـكار، وتناسـق الألفـاظ المختـارة للتعبـير بدقّـة عن المعنـى المراد .

تَمَثَّـلَ الإمـامُ البلاغـةَ العربيّـة و في مقدِّمتهـا الجمـع بـين اللفـظ والمعنـى جمعـاً يُراعـي التـلاؤم بينهـما ف (حقائـقّ المعـاني لا تتثبّـت إلّا بحقائـق الألفـاظ وإذا تحرّفـت المعـاني فذلـك لتزيّـف الألفـاظ)[١٨] و جـاءت لغتـه خالقـة مُحرّكـة موحيـة مُشـيرةً مُحمّلـةً بنبوءاتهـا مُسْـتَبطِنةً مُكْتَشِـفةً يقـول الإمـام : (أمّـا وجـه الانتفـاع بي في غيبتـي فكالانتفـاع بالشـمس إذا غيّبهـا عـن الأنصـار السـحابُ و إنّي لأمـانٌ لأهـلِ الأرضِ كـما أنّ النجـومَ أمـانٌ لأهـلِ السـماءِ)[١٩] بعيـداً عـن التكلّـف ،وبإيجـازٍ دالٍّ يَعْـرِضُ القضيّـةَ ،و يُمثـل لهـا تـاركاً تصـوّرَ النتيجـةِ لخيـالِ القـارئِ موجّهًـا مـن عقلـه، و قـوّةِ بصيرتـهِ في تكثيـفٍ بلاغـيّ للمعـاني عـلى طريـق الجـمال الفنّـيّ حيـث تتأكّـد البلاغـة و تتجسّـد مـن خـلال فعـل التلقّـي و مـا يتركه النـصّ في نفـس القـارئ مـن رغبـةٍ بالفهـمِ و سـعادةٍ بـهِ بعـدَ التعمّـق في تأمّلـهِ ونلحـظُ في محاججاتـه عليه السلام التأثـيرَ الفلسـفيّ و المنطقـيّ و الجـدل حيـث انصهـرت معارفُـهُ الفلسـفيّة في بوتقـةِ فكـرِهِ الدينـيّ و اعتمـدت مقولاتُـه الحجاجيّـة العقـلَ و المنطـقَ لأنّ غاياتِهـا هـي التأسـيس لفكـر جديـد .

نَجِـدُ في المحاججـةِ السـابقةِ اسـتعمال المثـل و (المثـلُ هـو اسـتقراءٌ بلاغـيّ أو حجّـةٌ تقـومُ عـلى المشـابهةِ بـين حالـين في مقدِّماتهـما و يُـرَادُ اسـتنتاجُ النهايـةِ بالنظـرِ إلى نهايـةِ مثيلتِهـا و يُعـدُّ المثـلُ في

١٧ العمري، محمد. بلاغة الخطاب الإقناعي، ط١ (الدار البيضاء: دار افريقيا الشرق، د.ت) ٧١.
١٨ التوحيدي، أبو حيّان. البصائر والذخائر. تحقيق القاضي، وداد. ط١ (بيروت: دار صادر، د.ت) المجلد الثاني الجزء الأول ٩٢.
١٩ الحسيني، بحار الأنوار لدر أخبار الأئمة الأطهار، ٧٨/ ٣٨٠.

البلاغةِ أحد أهمّ الدعائم التي تحقّق الإمتاعَ و التأثيرَ)[٢٠] و هذا الإمتاعُ و التأثيرُ يتولّد عن خصائصَ أدبيّةٍ، و بلاغيّةٍ تُقدّمُ نموذجاً بلاغيًّا نثريًّا يقتدي بالبلاغة الجامعةِ ؛ بلاغةِ الحديث النبويّ الشريف ؛البلاغة التالية للقرآن الكريم المُعْجز و مثلما البلاغةُ الجامعةُ في خدمةِ الرسالةِ السماويّةِ فإنَّ بلاغةَ الإمامِ هي أيضًا في خدمةِ الرسالةِ السماويَّةِ في نشرِ تعاليمِ الدّينِ لينتجَ خطابٌ ناطق واسع اللغة دالّ الألفاظ يُشكّلُ نموذجاً يجمعُ بينَ إفادةِ الكلِّام لمعناه و طريقة إيصال هذا المعنى تحسيناً و توضيحاً بواسطة نظام بلاغيّ تتضافرُ فيه البنيةُ الجماليّة و البنيةُ الدلاليّة في وحدة مُتفاعلةٍ ؛و لأنَّ الإقناعَ يرتبطُ بالإفهام فإنَّ الإفهامَ من هذه الوجهة أبرز مقوّمات الأدبيَّة ؛ فالبيان والكشف عن المعنى غاية وهدف، و حدّ البيانِ هو بلوغُ الإفهامِ و إيصالِ المعنى؛ و قد جاء في البيان والتبيين للجاحظ على لسان إبراهيم بن مُحَمَّد : (يكفي من حظِّ البلاغة أنْ لا يُؤتى السامعُ مِن سوءِ إفهامِ الناطقِ، و لا يُؤتى الناطقُ مِن سوءِ فهمِ السامعِ)[٢١] و قال أبو عثمان : (أمّا أنا فأستحسنُ هذا القولَ جِدّاً)[٢٢] و لكنّ الإفهامَ وحدَهُ لا يُحقّق البلاغة و لذلك فإنَّ الجاحظ يضعُ للإفهامِ درجاتٍ، منها الإفهامُ البلاغيّ على عادة العرب في إيصال المعنى

دعامات الأدبيَّة في خطاب الإمام هي اللفظ، والمعنى، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ ويتركّب كلامه من نوعيّ الكلام الذي اتفق النقاد العرب على تصنيفه وهما (عفو البديهة) و(كدّ الرّويّة) وهذا النوع المركّبُ منهما هو الأوفى بلاغيّاً لأنَّ الإمام في أقواله يحكي معانٍ عقليّة ويُراعي بلاغة النثر مضيفًا إليها بلاغة الخطبة ،وبلاغة العقل؛ فأمّا بلاغة النثر ف (هي أنْ يكونَ اللفظُ متناولاً، و المعنى مشهورًا، والتهذيب مستعملاً، والتأليفَ سهلاً، و المُرادَ سلياً، والرونقُ عالياً، والحواشي رقيقةً، والصفائحُ مصقولةً ، والأمثلة خفيفة المأخذ، و الهوادي متّصلة ،و الأعجاز مفصلة)[٢٣] وإذا علمنا أنَّ المنثور أربعة أقسام هي الخطابة، والترسّلُ، والاحتجاج ،و الحديث ، كما رأى قدامة بن جعفر[٢٤] وإذا أرفقنا علمنا هذا بتأمّل

٢٠ العمري، بلاغة الخطاب الإقناعي، ٨٠.
٢١ بحر، البيان والتبيين، الجزء الأول ١١.
٢٢ بحر، الجزء الأول ١١.
٢٣ التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثاني ١٤١.
٢٤ بن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان. البرهان في وجوه البيان. تحقيق مطلوب،أحمد و الحديثي، خديجة. ط١ (بغداد: جامعة بغداد، ١٩٦٧م)، ١١٧ و ١٢٨.

كلام الإمام رأيناهُ جامعاً لكلّ هذه الأنواع مُقدِّمًا نموذجاً أعلى ذلك الذي وصفه النقاد القدماء ب (أفضل الكلام) وعرّفوه بأنّه (ما كان معناه في ظاهر لفظه و قليله يغني عن كثيره)[٢٥] كما جاء على لسان الجاحظ مراعياً أصولَ الأساليب من مخاطب وموضوع و معنى.

فإذا قرأنا كلمات الإمام وفق المنهج التداوليّ ونظريَّة الأفعال الكلاميَّة وجدنا الأفعال في نصوص الإمام تهدف إلى تحويل وضع المتلقّي والتأثير في معتقداته، ومواقفه، وسلوكه حيث تتضمَّنُ الأفعالُ قيمةً داخليّةً؛ إخباراً، أو تحذيرًا، أو نصحاً، أو نهياً، وهو ما يُعرف بين أنواع الكلام بالأفعال الكلاميَّة بالفعل في أثناء القول، أو قوَّة فعل الكلام الذي يُحدِثُ تأثيراً في مشاعر المتلقّي، ويتحكّم باستقبالِهِ أمَّا أداة التأثير فهي اللغة بحروفها، وكلماتها التي ستخلقُ سياقاً عن طريقِ توظيفِ النحو، والدلالة، والتركيب ما يُضفي عليها في مرحلتِها الإنتاجيَّة الأدبيَّة المؤسَّسة أصلاً على البلاغة.

تكثرُ في كلماتِ الإمام الأفعالُ الموحيةُ بالتجدّدِ، و التغيير، والاستمرار، وانتهاء الظلم، والقهر، و تكريم الإنسان بتوفير الأمن ،والسلم ؛وهي أفعال تأتي بصور المستقبل، و بشائر الزمن القادم التي ستتحقق في زمن المهديّ زمن معجزاته ،وكراماته فضلاً عن أنَّ كثرة الأفعال هي تعبير عن الحركة والحياة و يأتي التعبير عن ذلك تلميحاً، و تصريحاً بضرورة وجودِ قائدٍ حادٍ هادٍ، و ضرورة عودته ليملك زمام إرادة شعبه فتتوحَّد إرادتُهُ مع إرادة الشعب ؛ و بذلك يدعو الإنسان إلى التفكير في وجودِه، و مصدرِهِ، وغايةِ حياتِه و ضمن ذلك دوره في مجتمعه الخاصّ ،و في المجتمع الإنسانيّ؛ وهو غرسُ الإنسانيَّة المثلى ،و تغيير الزمان الذي وصفه النبيّ صلى الله عليه وآله بالقول: (لا يأتي عليكم زمان إلّا الذي بعده شرّ منه)[٢٦] (يأتي على الناس زمانٌ همّهم بطونُهم، وشرفُهم متاعُهم ،و قبلتُهُم نساؤهم، و دينُهم دراهمُهم، و دنانيرهم ؛أولئك شرّ الخلق عند الله)[٢٧]

٢٥ بحر، البيان والتبيين، الجزء الأول ٨٣.
٢٦ الكرماني، صحيح البخاري، ط٣ (بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٧٥)، الجزء الثالث ٤٩.
٢٧ الصافي، لطف الله. منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر (بيروت: مؤسسة الوفاء، د.ت) ٤٣٨.

و من محاسن تلقّي كلام الإمام هو جمعه بين نوعي التلقّي الذي تحدّث عنه الجاحظ و(هما تلقّي الجودة الخاصّ من قِبل العلماء، وتلقّي الشيوع العام الذين لا يملكون المعرفة)[٢٨] لِما في كلامه من صفات الوضوح والسهولة ولاشتمال بلاغته على سائر أنواع البلاغة من وحيٍ،وإشارةٍ، و عقلٍ ،و خطابةٍ، واحتجاجٍ، وإيجازٍ ؛ و كيف لا ؟ والإمام تلميذٌ في مدرسة النبيّ ﷺ صاحب البلاغة الجامعة في حديثه النبويّ الشريف و هو أيضاً الإمام الذي تعلّم أساليب البلاغة الحجاجيّة من القرآن الكريم يقدّم البراهين العقليَّة، و يستعمل الأقيسة المنطقيَّة مراعياً أنواع المتلقّين لسلامة وصول الرسالة ها هو ﷺ يُحاجج في النصّ التالي على سلوك فرعون الكافر في ادّعائه الربوبيَّة و إمعانه في الكفر يقول: (ربِّ هذا فرعون ذو الأوتاد مع عناده ،و كفره، وعتوّه، وادّعائه الربوبيَّة لنفسه، وعلمك بأنَّه لا يتوب ،ولا يرجع، ولا يؤدّب ،ولا يؤمن، ولا يخشع استجبْتَ له دعاءه ،و أعطيتَهُ سؤلَه كرماً منك ،وجُوداً، و قلّة مقدار لما سألك عندك مع عظمة عنده)[٢٩] [٣٠]

(وبكفره عليهم افتخر، و بظلمه لنفسه تكبّر، وبحلمك عنه استكبر فكتب ،و حكم على نفسه جرأة منه أنَّ جزاء مثله أنْ يُغرق في البحر فجزيته بما حكم به على نفسه)[٣١] فهذه قصَّة فرعون مرويّةً على لسان الإمام بأسلوب حجاجيّ واضح إذ لم يرضَ فرعون بإرسالِ بني إسرائيل مع موسى وهارون ﷺ فأنزل الله عليه وعلى قومه أنواعًا من العذاب و في كلِّ مرَّة كان فرعون يقول لموسى ﷺ : (ادعُ لنا ربَّك أنْ يرفعَ هذا العذاب، و سأرسل بني اسرائيل معك)[٣٢] و لكن فرعون يكذب ،و يخلف بوعده فكانت نتيجةُ عنادِه وكُفرِه و عتوّه، و استكباره أن يغرق في البحر مع جنوده .

كان أسلوب الإمام ﷺ في وصف الجدل الباطل عن فرعون عقليًّا منطقيًّا حيث أورد ما عليه فرعون من عناد، و كفر، وعتوّ ،وادّعاء ربوبيّة ،و ما لله سبحانه من علم بأنَّ

٢٨ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان، تحقيق هارون، عبد السلام محمد. ط٢ (مطبعة الحلبي، ١٩٦٥م)، الجزء الثاني ١٠٢.
٢٩ الأصفهاني، الصحيفة الرضوية الجامعة، ٢٦٤.
٣٠ ابن طاووس، رضي الدين. مهج الدعوات ومنهج العبادات، تحقيق الاعلمي،حسين. د.ط. (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٤م)، الجزء الثالث عشر ٣٣٧.
٣١ ابن طاووس، الجزء الرابع عشر ٣٣٧.
٣٢ ابن طاووس، الجزء الرابع عشر ٣٣٧.

فرعون يكذب و غير قابل للإيمان و التوبة و التأديب و الخشوع مع ذلك قدّم له فرصة أخيرة كرماً منه دون أن يستجيب فرعون الكافر.

استعمل الإمام البلاغة الإقناعيَّة تأدية للأمانة السماويَّة المُسْتَخْلَف على أدائها فقدّم الأدلّة و الشواهد على استحقاق فرعون العذاب، والعقاب الإلهيّ و يكون الإمام بذلك قد أبان الحقائق الإيمانيَّة الساطعة عن طريق الحوار و الخطاب و بأسلوب خبريّ لأنَّ النصَّ حكاية من الماضي فالله سبحانه استجاب وأعطى و سأل فرعون الاستجابة وفرعون لا يتوب ولا يرجع و لا يؤمن ولا يخشع بل افتخر و تكبَّر و استكبر و حكم على نفسه بأن يغرق فكان للأساليب السابقة من نفي متكرّر و إخبار مثبت وظيفة في تصوير الباطل الصادر عن فرعون في مماراته للحقّ و عدم تقديره الأمور حقّ قدرها و في المقابل الصورة النقيضة الصورة الالهيَّة صورة الحقّ الساطع الكريم المتجسِّد في تلبية الله طلب فرعون و منحه الفرصة و هذه صياغة من الإمام عج صياغة حجاجيَّة قوامها أسلوب تضادّ بين أقصى الحقّ و أقصى الباطل و أدواتها التفكير الناقد و الملاحظة الدقيقة والتحليل العميق والاستنتاج الصحيح فيتحقّق للمحاججة الاستدلال، والاستنباط ، والاستقراء ، والاستنتاج .

ارتبط الحجاج بالإقناع و تجاوزت بلاغة الحجاج هنا غاية التزيين و الزخرفة إلى كونه تتمَّة مضمونيَّة متعلِّقة بالأفكار والمعاني و تكمن أهميَّتها في الإقناع العقليّ و إبراز مقاصد الكلام و تأكيد فعاليته فغاية الحجاج كما لا يخفى هي التأثير في المتلقّي لإقناعه بفكرة ما، و تتجاور في المثال السابق الوظائف البلاغيَّة والإقناعيَّة العقليَّة و اللغويَّة الجماليَّة و الفعاليَّة النفسيَّة أو الشعوريَّة و ذلك الارتباط الوثيق بين المستوى اللغويّ و المحتوى الفكريّ للمحاججة و تنامي الفعل البلاغيّ باثّا تحوّلاته في النسق اللغويّ المُعبّر عن فكرة النصّ و تحقّقت القصديَّة عن طريق الألفاظ المختارة بعناية و التراكيب المسبوكة في نسيج لغويّ ضامّ متماسك ،وبرزت بلاغة النصّ بمجازاتها وإشاراتها وإيحاءاتها وانطوت الفلسفة الجماليَّة للحجاج السابق على المفارقة بين الأنساق ،وعلى أشكال التضادّ المختلفة ، والبنى اللغويَّة ذات السمات البلاغيَّة الدّالَّة الجاذبة .

أدبيّة الخطاب و جماليّات التعبير في أقوال الإمام ﷺ

الأدبيَّة مصطلح متعلّق بالنثر تعلّقه بالشعر و هي مجموع المكوّنات التي تمنح الخطاب طابعه الأدبيّ من مثل الاستثمار الأمثل لطاقات اللغة الكامنة في الألفاظ و التراكيب و الأساليب و طرق النظم

و تتمثّل الأدبيَّة بقوَّة الخلق الإبداعيّ من تكثيف لغويّ و إيقاع خفي و تفرّد أسلوبيّ و تميز جماليّ

الأدبيّة نسبة إلى الأدب، والأدب لغة هو (تأديب الناس إلى المحامد ونهيهم عن المقابح)[٣٣]، فالأدب إذن هو القيم و الفضائل المُوجَّهة من الخير و نحو الخير فطريَّة كانت أو مكتسبة و بذلك نلحظ صدور الأدب و متعلّقاته عن النفس و الروح و تلتقي معاجم اللغة مع كتب الأدب في تعريف الأدب ففي الأدب الصغير لابن المقفّع

الأدب رسالة إرشاديَّة هادفة إلى تقديم جملة من الوصايا الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة حول العلاقات القائمة بين الناس في المجتمع و في الأدب الكبير هو رسالة اجتماعية سياسيَّة و فيها مفهوم الأدب يصبّ في التثقيف الأخلاقي بما ينطوي عليه من إرشاد و وعظ و توجيه[٣٤]، و انطلاقًا من هذه التعريفات للأدب ننمّي كلام الإمام إلى أعلى درجات الأدب لأنَّ كلماته على اختلاف أنواعها تمثّل رسالة سامية في طلب الحقّ، و سلوك طريق الخير، و تحقيق المصلحة الإنسانيَّة.

الأدبيَّة في كلام الإمام أدبيَّة ذات معنيين، لغويّ و اصطلاحيّ فأمَّا اللغويّ فهو القيم المكتسبة الموجَّهة نحو هدف سامٍ هو تهذيب النفس و ترويضها على فعل الخير و الفضيلة و أمَّا المعنى الاصطلاحي المستقى من المفهوم المعهود للأدب فيتماهى مع مفهومي العلم و المعرفة الشاملين بعد ارتباطهما بمعرفة علوم اللغة العربيَّة لأنَّ اللغة هي مادَّة الأدب و اللغة في الأدب تتجاوز كونها وسيلة تعبير إلى كونها وسيلة خلق و فنّ و من أبرز خصائصها في الأدب التأثير في نفوس المتلقّين و عقولهم و قلوبهم ، و هذا ما توخَّاه الإمام عج في خطابه وكلماته إذ تكمن أدبيَّة نصّ الإمام في رسالته المعبِّرة عن غاية الحياة الإنسانيَّة فقد التقت في لغته الوظيفتان النفعيَّة و الجماليَّة ما يمثل المرتكز الأساس للأدبيَّة وهو اقتران بلاغتَي اللفظ و المعنى فيتسابقان إلى سمع القارئ و قلبه

---

٣٣ ابن منظور، لسان العرب، د.ط. (دار صادر، د.ت) ٦٠.

٣٤ أبو حلقة، يوسف. الأدب الكبير و الأدب الصغير ورسالة الصحابة لعبد الله بن المقفع، ط٣ (لبنان: مكتبة البيان، ١٩٦٠م).

لقد تحقّقت لإرثه الكلاميّ عليه السلام خصوصيَّة أدبيَّة نابعة من خصوصيَّة لغته التي تجاوزت كونها وسيلة تعبيريَّة إلى كون جديد متجدّد هو الخلق الفنِّيّ ،و الغاية الجماليَّة (اللّهم عَظُمَ البلاء، و برح الخفاء ،و انكشف الغطاء بما وسعت السماء وإليك يا ربِّ المشتكى ،وعليك المُعوَّل في الشدّة والرخاء)[٣٥] ؛ ففي المعاني المتضادّة بين الخفاء و انكشاف الغطاء ،و بين الشدَّة والرخاء تكمن فاعليَّة الإيقاع خارج الحروف المفردة و في داخلها أيضًا و داخل الألفاظ و يتجلّى ذلك بعدم التنافر وعذوبة اللفظ و الانسجام و التناغم ما يدلّ دلالة واضحة على التفعيل الصوتيّ للألفاظ المرافق للتفعيل الدلاليّ؛ ففي القول السابق مخاطبة تعكس القدرة على الابتكار، وتطويع الخيال للتعبير عن الرؤى ،والأفكار كلّ ذلك ممَّا يتوفَّر فيه قول التوحيديّ: (رياض الأدب ،و قرائح العقول من لفظ مصون ،وكلام شريف ،و نثر مقبول، وبلاغة مختارة ،و خطبة مُحبَّرة، وأدبٍ حلوٍ)[٣٦] فالمقبولُ اللطيفُ المختارُ المُحبَّرُ الحلو وقع في السجع وفي ما ولّده من إيقاع في كلمات السماء ،و البلاء ،والخفاء ،و الغطاء ،والرخاء ،و السجع هنا ليس مجرَّد زخرفة ،أو زينة أو تلاعب بالألفاظ إنَّما هو رنين الألفاظ ،و صلة الربط بين المعاني، و قد تنبّه النقد القديم لأهميَّة السجع فقال عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشيّ حين سئل لِمَ تؤثر السجع على النثر؟ قال : (إنّ كلامي لو كنت لا آمل فيه إلّا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك و لكنّي أريد الغائب، والحاضر، والراهن، والغابر فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط)[٣٧] و للسجع إيقاع هو طاقة صوتيَّة تنتج عن التشابه و التكرار اللذين يقومان بالوظيفة ذاتها التي يقوم بها الاختلاف و التمايز نقصد الإيقاع الصوتيّ المتنوّع فالإيقاع في النثر بنية معقّدة متعدّدة المظاهر، و حيويَّة إيقاع النثر تكمن في تنوّعه لأنَّ البناء الصوتيّ طاقة واسعة يستحيل أن تجمد في بُعْدٍ واحدٍ ؛ و هذا مثال آخر من كلمات الإمام عليه السلام : (اللَّهمَّ إنَّ الشقي مَنْ قَنَطَ و أمامه التوبة، و وراءه الرحمة، و إنْ كنتُ ضعيفَ العمل فإنِّي في رحمتك قوي الأمل)[٣٨] و هكذا تَّمت المحافظة على الهُويّتين النفعيَّة،

٣٥ الأصفهاني. الصحيفة الرضوية الجامعة٢٩١.
٣٦ التوحيدي. الإمتاع والمؤانسة١٤٠.
٣٧ الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأول ٢٨٨.
٣٨ المشهدي، محمد. المزار الكبير. تحقيق القيومي،جواد ط١ (ايران: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢٥هـ)، الجزء السادس; الأصفهاني، الصحيفة الرضوية الجامعة٣٣٣.

والفنِّيَّة حيث تَمَّ توظيف طاقات اللغة الكامنة في الإيقاع و الدلالة فتجلَّت أدبيَّة نصوص الإمام من خلال نقل وظيفة اللغة من المجال التعبيريّ و التواصليّ إلى المجال الفنِّيّ الخالص فتحوّلت اللغة من تصوير الواقع إلى خلق واقع جديد .

وقد تجسّد المستوى الفنِّيّ في القول السابق باختياره ألفاظ متضادَّة مثل قنط والأمل، وضعيف وقوي، وانتقاء ألفاظ أخرى تنتمي إلى مجال دلاليّ واحد مثل التوبة والرحمة والشقاء والقنوط والانتقال من السكون إلى الحركة والحياة.

إنَّ ظهور الإمام عجل الله فرجه بعد غيبته حتميَّة إلهيَّة والهدف من اصطلاح الحتميَّة الإلهيَّة هو (البحث عن حلقة التغيير و التكوين الاجتماعيّ في المجتمع الإنسانيّ كما يُعبِّر عنه في حلقات فلسفة التاريخ)[٣٩]

لأنَّ الإمام هو الشخصيَّة المُباركة المُؤهّلة لتحقيق أمل الإنسانيَّة ، وحلم الأنبياء فلحركة الإمام المهديّ عجل الله فرجه دور خطير في تأهيل النوع الإنسانيّ ؛ إذ هو دورٌ أُممي و يُنظر إلى هذه الحركة على أنَّها خاتمة الحركات التغييرية في الأمم و المجتمعات[٤٠]

قامت بلاغة كلام الإمام و أدبيَّته على الترابطات اللفظيَّة و المعنويَّة بين عناصر التركيب الأدبيّ وحقّقت جماليتها الخاصَّة المتمثّلة بخصوصيَّة أداء الإمام لخطابه و بأسلوبيَّته المنطويَّة على الخصائص اللغويَّة و الفنِّيَّة التي تتحوّل بالنصّ من كونه إخباراً إلى كونه تأثيراً فاجتمعت البلاغة والبيان في كلام الإمام فصنعت الأدبيَّة وتمّ خلق ما وصفه الجاحظ ب (البيان التامّ) الذي (يحتاج إلى تميّز، وسياسة ، وإلى ترتيب ،ورياضة، وإلى تمام الآلة ، وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج ، وجهارة المنطق، فإنَّ حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة وإنَّ ذلك من أكثر ما تُستَمالُ به القلوب و تثني به الأعناق و تُزيَّن به المعاني)[٤١]

تُوصف بلاغة الأدب ببلاغة الممكن و توصف بلاغة الإعجاز و ما ينتمي إليها من حديث نبويّ و كَلم تنسب للأئمَّة بالبلاغة العليا، أو بلاغة الإعجاز ويُعبَّر عنها النقد القديم باصطلاح (السحر الحلال) المشتقّ من كلمة النبيّ صلى الله عليه وآله : (إنَّ من البيان لسحرًا) و سحر البيان يُحيّر العقول في حسنه و رونقه ودقَّة معانيه تحدَّث عنه ابن الأثير فقال :

٣٩ الموسوي، ياسين. أضواء على دولة الإمام المهدي، ط١ (دلينا، ١٤٢٥هـ)، ١٢.
٤٠ الموسوي، ١٣.
٤١ الجاحظ. البيان والتبيين، الجزء الأول ١٤.

(وأعجب ما في العبارة المجازيَّة أنَّها تنقل السامع عن خُلْقه الطبيعيّ في بعض الأحوال حتَّى أنَّها ليسمح بها البخيل و يشجع بها الجبان حتَّى إذا قطع عنه لك الكلام أفاق و ندم على ما كان فيه فهو المؤثر من القول المعتمد على التخييل و التصوير و هو البليغ[٤٢] فالسحر الحلال هو حسن استثمار طاقات اللغة لبلوغ الغايات و المقاصد و إنَّ كلمة السحر هنا يُقصد بها مظاهر الأدبيَّة و الجمال التي يتمتّع بها الكلام فهو وصف لكلِّ كلام فاق سواه حسناً و جودةً تكمنان في تزيين المعاني لتقع في القلوب ،واختيار الألفاظ التي تعلق في الآذان والأذهان .

تُضاف القيمة الفنِّيَّة إلى القيمة المعرفيَّة في النصّ المهدويّ لاشتماله غايات فكريَّة وعقيديَّة فالتشكيلات البيانيَّة والبديعيَّة مُحمّلة بمضمون فكريّ صوفيّ معرفيّ و هو الحلم المهديّ الآتي من الغيب لتحويل العدم إلى وجود بكلِّ ما يخلقه هذا الحلم من سلام وأمان واطمئنان والحلم المهديّ هو حلم الإنسان بجنَّته الأرضيَّة الآمنة السالمة الغانمة حيث ينعم الإنسان و يغنم ويسلم و قد نتج عن الإيمان بهذا الحلم صلة بين الدين والفنِّ فمهمَّة الفنّ في المفهوم الحداثيّ لا تختلف عن مهمَّة الدين لأنَّهما تجربتان روحيَّتان تُعبّران عن قيم الروح المطلقة الكامنة في اتِّحاد العناصر المتباينة والرؤى المختلفة.

اختار الإمام لمقولاته شكلاً فنِّيًّا حرًّا حرِّيَّة مُنظمّة لأنَّ ثَمَّ منطق تأليفيّ يحكم المقولات على أنواعها ؛وهذا الشكل الحرّ الذي يتمتّع به النصّ يجعله غيرَ خاضعٍ لتقاليد الأنواع الأدبيَّة النثريَّة فهي مقولات تبتكر تقاليدها الخاصَّة في التشابه والتباين، وتختلف في النوع والطول والقصر والأفكار، و تشترك في الموضوع والغاية.

تنتمي بلاغة الإمام إلى بلاغة النثر والترسّل ؛فالترسّل هو فنُّ الكتابة و(الرسل في القراءة هو التحقيق بلا عجلة؛ ترسّل اتَّأد و الترسُّل فنٌّ له شروطه التي تصب في الغايتين الفنِّيَّة والمعرفيَّة يقول عنه المرزوقيّ : إنَّ مبنى الترسُّل على أن يكون واضح المنهج سهل المعنى متّسع الباع واسع النطاق تدلّ لوائحه على حقائقه وظواهره على بواطنه إذ كان مورده على أسماع مفترقة من خاصّيّ وعامِّيّ و أفهام مختلفة و الترسُّل مختلف ومتنوّع منه العاطل لقلَّة تحلّيته بالأسجاع والحالي لأنَّه حُلّي بحسن العبارة، ولطف الإشارة، والمغصن

٤٢ مطلوب، أحمد. معجم مصطلحات النقد العربي، ط١ (بيروت: مكتبة البيان، ٢٠٠١م)، ٢٤٩و٢٥٠.

ذو فروع و المُفَصّل لأنَّه فصّل فيه المنظوم بالمنثور؛ و منه المبتدع لامتزاج المنظوم بالمنثور و قرنه أبو إسحاق الصابّيّ بالوضوح و البيان[٤٣]

النثر في النقد القديم فنٌّ قسيم للشعر صالح للبلاغة يقول قدامة بن جعفر مُعرِّفًا البلاغة: (هي القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام، و حسن النظام، وفصاحة اللسان)[٤٤] فالبلاغة لا تنحصر بالشعر فقط بل تشمل النثر أيضًا الذي يرى فيه الكرخيّ: (من شرف النثر أنَّ الوحدة فيه أظهر ،وأثرها فيه أشهر والتكلّف منه أبعد وهو إلى الصفاء أقرب فإذا كان باعث النظم الأوَّل هو الذوق فالذوق طباعيّ، و الطباعيّ هو مخدوم الفكر الذي هو منشأ النثر)[٤٥] و لكن النثر فنّ كفنّ الشعر وممّا قرّب بينهما قربًا شديدًا السجع والسجع من شروط البلاغة، و سماتها يحدّد قدامة بن جعفر الشروط الأفضل لاستعماله (السجع في موضعه وعند سماح القريحة به وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه فإنَّ السجع في النثر كمثل القافية في الشعر)[٤٦] ونثر الإمام في معظمه مسجوع يقول عج: (الحمد لله الذي يَخلق ولا يُخلق، ويَرزق ولا يُرزَق، ويُطْعِم ولا يُطْعم ، وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كلِّ شيء قدير)[٤٧] فالسجع في يخلق ويرزق و الخير وقدير سجع عفوي سمحت به قريحة الإمام دون تكلّفه واكتملت وظيفته المعنويَّة متضافرة مع تأثيره الجماليّ مترادفة مع نمط أسلوبي جذّاب هو المجاورة بين النفي والإثبات؛ إثبات الفعل على الطرف الأوَّل، ونفيه عن الطرف الثاني فضلًا عن تأديته وظيفة إيقاعيَّة أتت من التقسيم إلى جمل متشابهة في التركيب والطول والقصر

إنَّ السجع تحوّلٌ من صفةٍ بلاغيَّة إلى نوع أدبيّ وله في مقولات الإمام تجلّيات أدبيَّة تمثّل أرقى أشكال البلاغة

يسأل ربَّه في مناجياته : (أسألك سؤال مقترف مذنب ، قد أوبقته ذنوبه ، وأوثقته عيوبه، فطال على الخطايا دؤوبه ،و من الرزايا خطوبه، يسألك التوبة، وحسن الأوبة، و النزوع عن الحوبة ، ومن النار فكاك رقبته،

٤٣ مطلوب، ١٥٠.
٤٤ بن وهب، البرهان في وجوه البيان ١٦٣.
٤٥ التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثاني ١٣٤.
٤٦ بن وهب، البرهان في وجوه البيان ٢٠٩.
٤٧ القمي، مفاتيح الجنان، الجزء الخامس ٢٣٣.

والعفو عمَّا في رِبقته، فأنت يا مولاي أعظم أمله و ثقته)[٤٨] فبتواضع المؤمن العارف يتوجّه إلى ربِّه معترفًا بذنوبه و عيوبه و يشتقّ ألفاظه من حقل معنويّ تكثر فيه أشباه المترادفات (مقترف وذنوب) و(عيوب وخطايا) و(رزايا وخطوب) و (توبة وأوبة) فضلًا عن التشابه اللفظي بين رقبة وربقة رغم اختلاف المعنى بحسب تقاليبهما.

سارت كلمات الإمام على عادات البلاغة العربيَّة وتقاليدها، والتزمت قواعدها ومن ذلك بلاغة الابتداء وحسن المطلع أو الفاتحة لمجيئها في صدر الكلام؛ ولأنَّ فواتح الكلام ومطالعه تتضمَّن تكثيفًا للمضمون، وتمهيداً للدخول إلى النصّ، والسير على طريق أفكاره وغاياته وقد اشترط له الحمد أي بدء الكلام بالحمد حسب الجاحظ؛ (و جب على ذي مقالة أن يبتدئ بالحمد لله قبل استفتاحها كما بُدِء بالنعمة قبل استحقاقها)[٤٩]

ففي مقولات الحمد تتكرّر لفظة الحمد لله لأنَّها كلمة مفتاحيَّة و التكرار ظاهرة بديعيَّة ذات دور في أداء المعنى والتقديم الفنِّيّ له إذ تسهم في تنظيم الإيقاع و التكرار ثلاثة أنواع متحقّقة في تراث الإمام و هي التكرار المعنويّ، و التكرار اللفظيّ ، و تكرار ألفاظ بعينها من أسماء و أفعال مع تضادّ أو اختلاف في المعنى جاء في إحدى مقولات الحمد : (الحمد لله الذي ليس له منازع يعادله، و لا شبيه يشاكله ،و لا ظهير يعاضده قهر بعزّته الأعزّاء ،و تواضع لعظمته العظماء فبلغ بقدرته ما يشاء)[٥٠] إذ وقع الجناس بين (عزّته) المصدر المنسوب لله تعالى و(الأعزّاء) الوصف المنسوب للبشر و بالتالي بين عظمة المصدر المنسوب لله أيضًا و بين العظماء من البشر وعلى الرغم من الفرق غير المحدود بين الله و البشر إلّا أنَّ الجناس وحد بينهما بشكل أو بآخر هو غالبا شكل الاستخلاف في الأرض الذي كلَّف الله به الإنسان .

و من مقولات الحمد دليل آخر يتمَّ فيه توظيف التقسيم اللغويّ إلى ثنائيّات ذات إيقاع موسيقيّ متصاعد بهدف تأكيد الامتنان و التعبير عن الشكر : (لك الحمد يا إلهي إذ خلقتني بشرًا سويًّا ، وجعلتني غنيًّا مكفيًّا فلك الحمد حمدًا إن عُدَّ لم يُحْصَ ، وإن وُضِع

٤٨ القمي، الجزء السادس ١٨٤.
٤٩ الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثاني ١٠٤.
٥٠ القمي، مفاتيح الجنان، الجزء الثامن ٢٣٣; الأصفهاني، الصحيفة الرضوية الجامعة ٣٠٢.

لم يتسع له شيء)[٥١] "٥٤"حيث يتم تأثير القول في نفوس السامعين بما يختزنه من طاقات فنيَّة مختلفة كالدقَّة في اختيار الألفاظ، وتركيب الجمل، وصياغة العبارات ،و يقف وراء الكلمات إحساس جماليّ مرهف ،و ذوق مثقّف يتجلّيان في حسن الصياغة وأناقة الأسلوب ما يضع كلماته ﷺ بين أنواع النثر الفنِّيّ الاستثنائي في صورته المبدعة الناتجة عن إصابة المعنى وصدق الفكرة وسموّها وابتكار ثوب الخيال لها و قبل ذلك كلّه هي نتاج فطرة فنيَّة تغذَّت على العلم و المعرفة و ابتعدت عن التكلّف فيما سمَّاه النقد العربي القديم ب(إصابة المقدار) فكلّ ما فضل على المقدار تكلّف و التكلّف مذموم يرى الجاحظ : (لا يكادون يضعون اسم المتكلّف إلّا في المواضع التي يذمونها و للكلام غاية و لنشاط السامعين نهاية و ما فضل عن قدر الاحتمال و دعا إلى الاستقلال والملال)[٥٢]

حيث يرذل الجاحظ الهذر و الغلوّ وفضول الكلام و الإكثار و يمدح الإيجاز الذي يعرِّفه بأنَّه (الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة فأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره و معناه في ظاهر لفظه)[٥٣] و من المصطلحات النقدية التي يطلقها النقد القديم على الإيجاز (الإصابة) ومعناها الوصول إلى الغاية باللفظ الدقيق الموجز و جاءت تسميتها من تشبيه إجادة المعنى برمية السهم أو الرمح و يتمُّ ذلك عن طريق الاختيار المقترن بالتمييز والناتج عن فكر و إرادة وذوق ولا تخفى خطورة الذوق في عمليَّة الخلق الأدبيّ يرى التوحيديّ أنَّ: (الذوق وإن كان طباعيًّا فهو مخدوم بالفكر، والفكر مفتاح الصنائع البشريَّة كما أنَّ الإلهام مستخدم الفكر والإلهام مفتاح الأمور الإلهيَّة)[٥٤]يتمتَّع الجناس بطاقات فنيَّة و قيم تعبيريَّة و يسهم في تكوين الدلالة ويؤثِّر في أسلوب الصياغة وفي توفير الإيقاع يقول الإمام : (اللَّهمَّ إنِّي أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك المؤمنون على سرّك المستسرّون بأمرك، الواصفون لقدرتك ، المعلنون لعظمتك، أسألك بما نطق فيهم من مشيئتك ، فجعلتهم معادن لكلماتك ، أعضاد ،و أشهاد ، و مُنَاةٌ، و أذوادٌ، وحَفَظَةٌ ،و روّاد فبهم ملأت سماءك وأرضك حتَّى ظهر أنَّ لا إله إلّا أنت)[٥٥] فالجناس بين

٥١ ابن طاووس، مهج الدعوات ومنهج العبادات، الجزء الثالث ٣٣٨; الأصفهاني، الصحيفة الرضوية الجامعة ٢٦٥.
٥٢ الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الثاني ١٨.
٥٣ الجاحظ، الجزء الأول ٨٣.
٥٤ التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثاني ١٣٤.
٥٥ الطوسي، أبو جعفر محمد. مصباح المتهجد. تحقيق الأعلمي، حسين ط١ (بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٨م)، الجزء السابع عشر ٥٥٦.

سرّك و المستسرّون يوحّد بين طرفين متغايرين هما سرّ الله و طالب سرّه الخاضع لأمره وهذا هو توحُّد المؤمن بربِّه الذي اضطلع الجناس بمهمة التعبير عنه؛ فالجناس هو التفات من وجه لآخر بين ذاتين يجري التعبير عنه أيضًا بالانتقال بين الضمائر و هو هنا بين ضمائر الخطاب وضمائر الغيبة، و التفات آخر بين أفعال الماضي ،و المضارع ، والأمر؛ ولذلك يبدو الجناس كأنَّه الوجه الآخر للطباق، و ما لم يتحقّق معناه بالطباق يتحقّق بالجناس فإذا كان الطباق فصل فإنَّ الجناس وصل و الطباق هو الصراع لأنَّه تضادّ و الجناس هو حلّ الصراع .

و تقترب من الجناس تلك الألفاظ المتشابهة بوزنها الصرفيّ و بعض حروفها المتوالية في تتابع يشبه تتابع الجناس إنَّها ظاهرة شبه الجناس إذا صحَّ التعبير كما في القول السابق الذي تتوالى فيه متشابهات هي أعضاد وأذواد وأشهاد وروّاد وهي جموع تكسير فالأعضاد جمع عضد من الرجال و النساء و الأشهاد هم المعينون والأنصار و المنجدون، والأذواد هم المدافعون عن حياض الوطن، والرّواد المتقدِّمون فهؤلاء هم ولاة أمر الله وعلى عاتقهم وصف قدرة الله و إعلان عظمته لأنَّ الله نطق مشيئته فيهم فكانوا جنده الذين وصفهم الإمام بمعادن كلمات الله فهم تجسيد لكلماته، و هم كثر امتلأت بهم الأرض و السماء.

و هكذا فإنَّ أقواله ﷺ تنطوي على وصايا تربويَّة وتُعبِّر عن معارف إلهيَّة يسّرها الله لعبده المؤمن القريب منه و هو بذلك يحيي منهج أهل البيت عملًا بالإسلام الصحيح ونشرًا لأفكاره كما ينبِّه في كلماته على الأحكام الشرعيَّة من مثل قوله : (سجدة الشكر ألزم السنن و أوجبها)[٥٦] و من مثل قوله: (الحقّ معنا ، فلن يوحشنا من قعد عنا ، ونحن صنائع ربِّنا والخلق بعد صنائعنا)[٥٧]

يدفع الظلم عن أهل البيت و يعلن موالاته لهم ، بل يدعو الآخرين إليها ،و إلى البراءة من أعدائهم، والعمل بوصاياهم ، والثبات على منهجهم إيمانًا بتراثهم ، ودفاعًا عن حقِّهم في الخلافة ؛ الحقُّ الذي يستمسك به ويدافع عنه و يتكرّر ذكره في مقولاته تأكيدًا له (إنَّ الحقَّ معنا وفينا لا يقول ذلك سوانا إلّا كذّاب مفترٍ ولا يدّعيه إلّا ضالٌّ غويّ)[٥٨]

٥٦ الحسيني، بحار الأنوار لدر أخبار الأئمة الأطهار، الجزء الثالث والخمسين١٦١.
٥٧ الحسيني، ٨٩/ ٩٦.
٥٨ الحسيني، ٥٣/ ١٩١.

و الحقّ من حقَّ أي صحّ وثبت ،وهو اسم من أسماء الله الحسنى ،و معناه ما لا يسع إنكاره و يلزم إثباته والاعتراف به ؛ فهو الحقّ المطلق الذي يأخذ منه كلَّ حقٍّ حقيقته و يضيره انتشار الباطل ،و هو الذي لا يحوَّل و لا يزول ولا يتغيَّر و إنَّ عدم رؤية الكافرين للحقيقة لا ينفيها و لذلك فهدف الإمام في مقولاته تمييز الحقِّ عن الباطل بدءا من معرفة الله للقيام بمهمَّته الإصلاحيَّة في تقديم مخزون من القيم و العقائد و التعاليم التربويَّة والأخلاقيَّة لتأسيس موفور الكرامة الإنسانيَّة للمجتمع، و تخليص الإسلام من انحراف مساراته فيتحقّق الانتفاع به على النحو الذي حدّده الإمام في بعض مقولاته ومنها : (أمَّا وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبتها عن الأنظار السحاب و أنِّي لأمان أهل الأرض كما أنَّ النجوم أمان أهل السماء)[٥٩] و الأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى و مقتضاها تحقّق الردّ عن الباطل و الهداية إلى الحقّ من الإمام في زمن الغيبة و المراد حصولها بالأسباب الخفيَّة كما يشعر به حديث السحاب والانتفاع بالإمام عندها كالانتفاع بالشمس المغيبة بالسحاب فالمنفعة منتفية بالضرورة[٦٠]

فهو يغيب غيبة طويلة ثُمَّ يظهر فيملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا حيث ترتفع راية الحقِّ ويندحر الباطل

تلك كانت كلمات مختارة من كلمات الإمام المهديّ ﷺ مأخوذة من منابع مختلفة و كونها مختارة لا يعني مطلقًا أنَّها أفضل من تلك التي لم يقع الاختيار عليها فكلماته ﷺ تستوي في مقام واحد من الشرف و النظام وتحتل رتبة رفيعة واحدة أمَّا سبب الاختيار فهو كثرة أقواله وكلماته، وتشعّب موضوعاتها و حاجتها إلى أبحاث كثيرة تعمل على إحصائها، و تصنيفها ،وإجراء دراسات متخصّصة عليها، وذلك لسريان روح الأدب فيها، و ولادة بيان جديد معها يتّسم بدرجة عالية من التوحيد بين الموضوع و الشكل في نصوص ذات أبعاد معرفيَّة واجتماعيَّة فالإمام ﷺ رمز كبير لتغيير جذريّ في الفكر و الواقع حول دولة قويَّة تقدِّم الصورة الصحيحة للإسلام ليتمحور الناس حولها و يبنون دولتهم على قواعدها.

٥٩ الحسيني، الإمام المهدي،سيرته ،علامات ظهوره، الجزء الأول ١٧٣.
٦٠ الحسيني، بحار الأنوار لدر أخبار الأئمة الأطهار ٥٣/ ١٩٣.

و هكـذا فقـد اقـترن في كتاباتـه ﷺالخيـال باللغـة و اجتمعـت قـوَّة الفكـر وقـوَّة التصويـر إذ لم تكـن الصـورة فيهـا مجـرَّد زينـة بـل بصيـرة و رؤيـا وهـذا مـا جعـل مـن تـراث الإمـام تراثًـا أدبيًّـا يحمـل قيـمًا مضاعفـة فهـو كنـز أدبيّ فنِّـيّ و علميّ معـرفيّ في آن معًـا.

الخاتمة

تتمثَّـل القضيـة اللغويَّـة البـارزة في خطـاب الإمـام بالعلاقـة بـين اللفـظ و المعنـى حيـث تتحـوّل إلى علاقـة بـين اللفـظ واللفـظ الآخـر مـن جانـب و إلى العلاقـة بـين المعنـى و المعنـى الآخـر مـن جانـب ثـانٍ لأنَّ المعـاني يتوضّـح بعضهـا ببعـض و كذلـك الألفـاظ و ليـس للعنـصر الواحـد في ثنائيَّـة اللفـظ و المعنـى قيمـة دون الآخـر فالعلاقـة بينهـما علاقـة أخـذ وعطـاء بسـبب مـن غنـى طبيعـة كلّ منهـما إذ يتركّـب اللفـظ مـن عنـاصر عديـدة منهـا الحـروف و الأصـوات والأجـراس و الإيقـاع ،و يتركَّـب المعنـى مـن التصـوّرات و الـدلالات و الأغـراض و الأفـكار.

و هـذا شـكل مـن أشـكال اتِّحـاد اللغـة بالفكـر و تولّـد أحدهمـا عـن الآخـر و اتِّحادهمـا معًـا بالإحسـاس و الرؤيـا فجـاء الخطـاب المهـدويّ المبـارك مزيجًـا نـادرًا مـن الأدب و الفلسـفة و التصـوّف ، والـكلام ، والعقيـدة ،لأنَّ لغـة الإمـام كانـت مرآة لفكـره ، و كان فكـره مصـدرًا للغته .

في مسـتوى الأدبيَّـة تَـمَّ الإبـلاغ بلغـة ذات خصوصيَّـة عاليـة ابتعـدت بالألفـاظ عـن مسـتواها العـادي إلى مسـتواها الفنِّـيّ و الرمـزيّ في ظـل الوضـوح و الصـدق فتعـزّزت جماليَّـة الطاقـة غـير المنتهيـة الكامنـة في اللغـة و جمـع خطـاب الإمـام عـج بـين أمريـن نظـر النقـد القديـم إليهـما زمنًـا طويـلًا عـلى أنَّهـما أمـران منفصـلان الأمـر الأوَّل النظـرة المنطقيَّـة للغـة التـي تعنـى بصـدق المضمـون ، و وضوحـه و نفعيّتـه ،و الأمـر الثـاني هـو النظـرة الجماليَّـة للغـة إذ تمنحهـا قـوَّة الخيـال و انزيـاح البلاغـة هُويَّـة فنِّيَّـة و مجـدًا كتابيًّـا فقـد اسـتملح الإمـام بعـض الألفـاظ عـن بعـض و انتقـى معـاني بعينهـا و لأنَّ المعنـى هـو المضمـون و اللفـظ هـو الشـكل فالمعنـى هـو تاريـخ الإنسـان و حضارتـه و الشـكل هـو التعبـير و بنـاء عـلى ذلـك تحقّـق في خطـاب الإمـام عـج الاعتـدال و التحـام الشـكل بالمضمـون .

تجلّت المعرفة المهدويَّة بأجمل صياغاتها متوسّلة الصورة الفنيَّة بوصفها أداة من أدوات التعبير و وجهًا من وجوه الدلالة كونها تصدر عن فكرة عقليَّة أو شعور وجدانيّ فامتلك خطابه عج في نفوس متلقّيه خصوصيَّة نادرة و تأثيرًا عظيمًا لمراعاته أنواع المعاني كصحَّة التفسير و الالتفات و التكافؤ و غيره ، و أنواع الألفاظ من جهة ثانية و ائتلافاتها مع المعاني مساواة و إشارة و إردافًا و تمثيلًا حتَّى ارتقى خطابه عج إلى مستوى فلسفيّ بين المادّة و الصورة في حضور إبداعيّ موحَّد تنصهر فيه المكوّنات الأدبيَّة في بوتقة لغويَّة نحويَّة بلاغيَّة بيانيَّة معًا.

المصادر:

القرآن الكريم
أبو حلقة، يوسف. الأدب الكبير و الأدب الصغير ورسالة الصحابة لعبد الله بن المقفع. ط٣. لبنان: مكتبة البيان، ١٩٦٠م.
ابن طاووس، رضي الدين. مهج الدعوات ومنهج العبادات. تحقيق الاعلمي، حسين. د.ط. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٤م.
الأصفهاني، مُحَمَّد باقر. الصحيفة الرضوية الجامعة. تحقيق مؤسسة الإمام المهدي. ط١. مؤسسة الإمام المهدي، د.ت.
التوحيدي، أبو حيان. الإمتاع والمؤانسة. تحقيق أمين ،أحمد و الزين، أحمد. لجنة التأليف و الترجمة، ١٩٤٢م.
التوحيدي، أبو حيّان. البصائر والذخائر. تحقيق القاضي، وداد. ط١. بيروت: دار صادر، د.ت.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. الحيوان. تحقيق هارون، عبد السلام محمد. ط٢. مطبعة الحلبي، ١٩٦٥م.
الحسيني، باقر. بحار الأنوار لدر أخبار الأئمة الأطهار. بيروت: مؤسسة الوفاء، د.ت.
الحسيني، مرتضى فياض. الإمام المهدي،سيرته، علامات ظهوره، د.ت.
الراوندي، قطب الدين. دعوات الراوندي. تحقيق مدرسة الامام المهدي، ١٤٠٧هـ.
الشافعي، يوسف بن يحيي بن علي. عقد الدرر في أخبار المنتظر. تحقيق البوريني، المهيب بن صالح. ط٢. الأردن، ١٩٨٩م.
الشامي، صهيب محمود. معجم أحاديث المهدي عند أهل الحديث و الأثر. ط١.، ٢٠٢٠م.
الصافي، لطف الله. منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر. بيروت: مؤسسة الوفاء، د.ت.
الطوسي، أبو جعفر محمد. مصباح المتهجد. تحقيق الأعلمي، حسين. ط١. بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٨م.
العمري، محمد. بلاغة الخطاب الإقناعي. ط١. الدار البيضاء: دار افريقيا الشرق، د.ت.
القمي، عباس. مفاتيح الجنان. ط٣. دار ذوي القربى، د.ت.
الكرماني. صحيح البخاري. ط٣. بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٧٥م.
الكفعمي، تقي الدين بن إبراهيم العاملي. البلد الأمين و الدرع الحصين. تحقيق الاعلمي، علاء الدين. ط١. لبنان: مؤسسة الاعلمي، ١٩٩٧م.
المشهدي، محمد. المزار الكبير. تحقيق القيومي، جواد. ط١. ايران: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢٥هـ.
الموسوي، ياسين. أضواء على دولة الإمام المهدي. ط١. دلينا، ١٤٢٥هـ.
النجفي، مرعشي. شرح إحقاق الحق. تصحيح الميانجي، إبراهيم. قم: منشورات مكتبة آية الله العظمى، د.ت.
النفري. المواقف والمخاطبات. تقديم محمود، عبد القاهر و تحقيق آربري، آرثر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق هارون، عبد السلام. ط ٢. مكتبة مصطفى بابي الحلبي، ١٩٦٥م.
بن طاووس، رضي الدين. مهج الدعوات ومنهج العبادات. قم: دار الذخائر، ١٤١١هـ.
بن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان. البرهان في وجوه البيان. تحقيق مطلوب، أحمد و الحديثي، خديجة. ط١. بغداد: جامعة بغداد، ١٩٦٧م.

جمعة، حسين. تجليات التصوف وجمالياته في الأدبين العربي و الفارسي. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، د.ت.

طاووس، ابن. اقبال الاعمال. تحقيق الاعلمي، حسين. د.ط. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٦م.

مطلوب، أحمد. معجم مصطلحات النقد العربي. ط١. بيروت: مكتبة البيان، ٢٠٠١م.

ابن منظور. لسان العرب. د.ط. دار صادر، د.ت.